تمهيد

الأدب والبحر

الأدب متعة وضرورة ، وعمل جمالى واجتماعى ، يجمع بين العذوبة والفائدة ، وبين الخاص والعام ، ويستخدم اللغة استخدامًا إبداعيًّا منظماً ، غايته التعبير الخاص عن الإنسان الاجتماعى والإنسان المطلق ، والبحث فى جوهر الحياة واكتشاف العالم وفهمه ، ودفع حركة التقدم الإنسانى ، واستشراف مستقبل أفضل .

والأدب يتبادل التأثير والتأثر مع الحياة ، فمع أن الحياة هى الأصل الذى يعبر عنه الأدب ، إلا أن الأدب يمكن أن يفتح آفاقاً أوسع للحياة ، بالمثل العليا والنماذج العظيمة ، والتخييل والتنبؤ بحياة أفضل . ومن هنا يقدم الأدب رؤى جديدة لعالم المستقبل ، وليست ببعيدة تجربة الأديب البريطانى هـ . ج . ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) ، فى روايته « أول بشر فوق القمر » (١٩٠١) ، التى سبق بها رحلات الإنسان إلى الفضاء بأكثرَ من نصف قرن ، والتنبؤات العلمية فى روايات الأديب الفرنسى جول فيرن (١٨٢٨ - ١٩٠٥) وخاصة فى روايته البحرية « عشرين ألف فرسخ تحت الماء » .

ولقد وعى الإنسان الأول أهمية الأدب والفن ، وفائدتهما فى بناء حياته ومجتمعه . فمنذ الفجر الأول للإنسانية استخدم الإنسان الفن لتفسير العالم وتغييره وتقدمه ، من تطوير لأدوات العمل إلى أغنيات العمل الجماعية ، ومن الأسطورة والأدب الشعبى إلى الشعر والملحمة ، عرف الإنسان الأول ضرورة الأدب والفن ووظيفتهما فى تقدم المجتمع الإنسانى ، والسيطرة على الطبيعة . فقد كانت هذه الأشكال الأولى من الأدب والفن ضرورة وفائدة ومتعة ، وليست مجرد تسلية أو شغل فراغ . فرقص الإنسان الأول قبل الصيد كان مقدمة ضرورية للشعور بالقوة . ورسم الحيوان على الجدران كان وسيلة للتفوق على الحيوان والسيطرة عليه . وكانت الأسطورة ضرورة لتفسير مظاهر الطبيعة الجبارة الخارقة ، وعندما تحرك الإنسان إلى البحر لاكتشاف الطبيعة ، وواجه عالم البحر الغنى بالعجائب المثيرة للخيال ، من الأسماك إلى الحيتان

ومن الأمواج والعواصف والأنواء إلى الشعاب والصخور المضيئة ، أبدع الخيال الإنسانى الأسطورة البحرية لتفسير تلك الغرائب والعجائب الطبيعية .

وقد شكلت الأسطورة الأساس الأول لفنون الشعر والحكاية الشعبية والملحمة التى مزجت بين الخيال والواقع ، وكونت المصادر الأولى لمعرفة تاريخ وجغرافية الإنسانية فى فجر التاريخ . ولهذا عدت الملحمة « الصيغة الأولى » للتاريخ والجغرافيا ، وعرف الشعر بأنه ضرب من « الفلسفة البدائية » ، وقدمت الأسطورة والحكاية الشعبية بعض المفاهيم الجغرافية لتفسير مظاهر الطبيعة بالخيال والخوارق ، إزاء غموضها وعجز الإنسان الأول عن تقديم التفسير العلمى لها فى حينها . ولم تزل مظاهر الطبيعة التى فسرتها الأسطورة والملحمة والحكاية الشعبية والشعر ، ماثلة حتى اليوم بشكلها الواقعى بعد أن عرف الإنسان تفسيرها العلمى . وإذا « ذهبنا مع الوهم وطفنا حول البحر الأبيض المتوسط ، هذا البحر الداخلى الذى كان مرتع الخيال الوثنى ، لما وجدنا فيه موقعاً شهيرًا لعظمته أو غرابته ، إلا وذكرنا بمأساة خرافية جميلة ، وبالتالى عمل رائع من أعمال الشعر أو النحت.» . – كما يقول « لويس هورتيك فى كتابه الفن والأدب » – وإذا « سايرنا الشواطئ على غرار البحارة اليونان أو الفينيقيين لرأينا الأساطير تمزج بالموقع مزجًا حميمًا . فتبدو الميثولوجيا العنيفة الأولى لعلم الجغرافيا »[1] .

ولقد كان البحر مجالا خصبًا للتفسيرات الأدبية الأسطورية فى أدب البحر ، من ملحمة الأوديسة لهوميروس والإنيادة لفرجيل – وما حفلت به الملحمة الأولى من تصوير الصراع بين بطلها أوديسيوس وبين إله البحر نبتيون والمناظر الأسطورية للبحر ، وما قدمته الثانية من ملحمة بحرية عن العاصفة التى تعرض لها أسطول إينياس فى البحر حتى سقوط بالينيورس فى البحر فداءً للأسطول الطروادى – إلى حكايات السندباد البحرية وقصص ألف ليلة وليلة البحرية الشعبية ، وما تضمنته من حكايات عرائس البحر وجنيات البحر ومن تصوير أسطورى لعالم البحر .. إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة التى أثرت أدب البحر على مر التاريخ ، وجمعت بين الأسطورية والواقعية والرومانسية واستهدفت اكتشاف الطبيعة البحرية وتفسيرها واستغلالها لصالح البشرية وفتح آفاق جديدة أمامها .

هكذا قاد الأدب والفن صراع الإنسان مع قوى الطبيعة ، من أجل ترويضها والسيطرة عليها واستخدامها لصالح البشرية . فكانا « سلاحًا إضافيًا عظيمًا فى الكفاح ضد قوى الطبيعة

(١) لويس هورتيك ، الأدب والفن ، ترجمة الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعى ص ٤٥ – ٤٨ .

الغامضة » ، كما يقول أرنست فيشر فى كتابه « ضرورة الفن » . ويذكر فيشر أيضًا أن ظهور رجال البحر أسهم فى تطوير الشخصية الإنسانية وتفردها بالبطولة والمغامرة والحرية وعدم التبعية . لأن الحياة الخطرة فوق بحر شاسع ، مضطرب الأمواج والعواصف ، جعلت رجل البحر سيد مصيره . « فهو مغامر اعتاد تعريض حياته للخطر المرة بعد المرة ، ليس فى نفسه ولاء للأرض والمحافظة على نظمها التى تتغير فى البذر والحصاد . وإنما ولاؤه للبحر المتغير المتقلب الذى لا يكف عن الحركة ، والذى يستطيع أن يهبط به إلى القاع أو يرفعه على قمة أمواجه إلى الذروة . كل شىء هنا يتوقف على البراعة الفردية وعلى العزيمة والقدرة وعلى الحركة والذكاء .. وعلى الحظ . .[٢] » .

لقد رافق البحر البشرية طوال تاريخها منذ انبثاق الحياة على شواطئ البحار الطينية وفى مياهها الضحلة مكونة ما يعرف بعصر الأسماك . كما كان البحر مجالا لتقدم الحضارة الإنسانية منذ اخترع الإنسان السفن للصيد ، إلى عصور المغامرات والاكتشافات البحرية الكبرى . وحتى اليوم لم يزل البحر مصدرًا رئيسيًا للغذاء ، ومعقد آمال البشرية فى تعويض نقص الغذاء العالمى ومصادر الطاقة ، بما تحتويه البحار من أسماك وحيوانات بحرية وبترول ومعادن ثمينة لم تستغل بعد بشكل كاف ، وما تدخره حركات المد والجزر والأمواج من إمكانيات لإقامة السدود البحرية وتدبير مصادر جديدة للطاقة .

وقد غزا الإنسان البحر لاكتشاف المجهول ، وفتح آفاق جديدة ، وإثراء الحياة البشرية ، والقضاء على اغتراب الإنسان وعزلته ، وتنمية عوامل الاتصال الإنسانية ، ومن أجل تعزيز سيطرته على قوى الطبيعة وترويضها وتوظيفها لصالح البشرية . وكان الأدب طليعة لاكتشاف عالم البحر وفهمه وتفسيره . كما أسهم فى ارتياده وتسجيل عالمه الجميل المضطرب وإبداع النماذج الأسطورية والرومانسية والواقعية المعبرة عن تطور علاقة الإنسان بالبحر ، والتى تتراوح بين القوة والضعف ، من ارتياد الطبيعة البحرية وتحديها إلى الخوف منها والاستسلام لها . فصاحب ارتياد الإنسان للبحار والمحيطات ، ظهور أدب البحر .

وأقصد بأدب البحر ذلك الأدب الذى يستهدف التعبير عن عالم البحر ، والذى يكون البحر موضوعه الرئيسى المؤثر فى الأحداث والشخصيات ، وفى الرؤية الكلية للعمل الأدبى . وهو أدب هام يشكل جزءًا أساسيا من تراث البشرية وحضارتها . فيضم أدب البحر الأسطورة

(٢) أرنست فيشر ، ضرورة الفن ، ترجمة أسعد حليم ، ص ٥٦ و ٥٧ .

والملحمة والشعر والحكاية الشعبية وأدب الرحلات البحرية والقصة والرواية ، ويجمع فى نماذجه بين الشخصيات الأسطورية والشخصيات الواقعية ، بين الرؤية الرومانسية للطبيعة كمجال للهروب والاستسلام كما نجدها عند جان جاك روسو ، وبين الشخصيات البطولية ، التى هى جماع لكل عناصر القوة والذكاء والمغامرة فى صراعها مع قوى البحر ، كما نجدها فى شخصية إيخاب « بطل رواية هرمان ملفل » « موبى ديك » ، وفى شخصية « الطروسى » بطل رواية حنا مينه « الشراع والعاصفة » .

وأدب البحر موضوع خصب يتصل بالحضارة الإنسانية بوجه عام وبالحضارة العربية على وجه الخصوص ، فللعرب إسهامات هامة فى عالم البحر وفى أدب البحر ، لا تنفصل عن دور الحضارة العربية المؤثر فى الحضارة الإنسانية . بل إن أدب البحر العربى يتميز بالثراء والتنوع فى المادة الأدبية والعملية بشكل لا نكاد نجده فى أدب أى شعب آخر . أو كما يقول كراتشكوفسكى عن الأدب الجغرافى العربى : « لقد أثار هذا الأدب اهتمامًا بالغًا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمى وتارة شعبى ، وهو طورًا واقعى وأسطورى على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن الفائدة – لهذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها فى أدب أى شعب معاصر للعرب »[٣] . فأدب البحر العربى يتضمن بالإضافة إلى طبيعته الأدبية والفنية الجميلة ، موضوعات علمية تفيد الجغرافيا والتاريخ وعلم البحر والملاحة البحرية بالإضافة إلى الأدب الشعبى والتراث اللغوى ، من الشعر الجاهلى إلى أدب الرحلات البحرية والرواية العربية الحديثة . لهذا نركز فى هذا الكتاب على أدب البحر عند العرب ، وهو موضوع جديد ومفيد وممتع وهام حظىَ باهتمام المستشرقين والعلماء والباحثين الأجانب ، ولم ينل حظه من اهتمام كتابنا العرب . وافتقدت المكتبة العربية الكتب الحديثة فى هذا الموضوع ، فمنذ كتب الدكتور حسين فوزى كتابه الرائد « حديث السندباد القديم » سنة ١٩٤٣ ، لم يصدر بالعربية ، على مدى علمى ، سوى كتابى محمد ياسين الحموى (دمشق ١٩٤٧) ود . أنور عبد العليم (القاهرة ١٩٦٧) عن شخصية الملاح العربى أحمد بن ماجد . بل إن بعض مخطوطات التراث العربى الهامة فى أدب البحر ، كقصص التجار العرب وأصول أدب المرشدات البحرية وغيرها ، لم تزل بعيدة عن متناول الباحث العربى لتشتتها فى مكتبات العواصم الأوروبية المختلفة . أما مصادر التراث العربى الأخرى فى أدب البحر فقد وجدت متعة

(٣) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، حـ ١ ، ص ٢٥ .

وفائدة حقيقيتين فى قراءتها ودراستها ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى نقلهما إلى قارئ هذا الكتاب .

إن بعث الوجوه المضيئة فى التراث العربى وتقريبها إلى القارئ العادى قبل المتخصص ، هو الطريق المجدى ، فى رأيى ، للربط بين جذورنا وأصولنا الحضارية والثقافية وبين حاضرنا ومستقبلنا أيضاً . فلعل هذا الأسلوب ينهى الجدل العقيم حول تقديس التراث أو رفضه ، ويجذب القارئ إلى تراثنا ويحبب إليه قراءته . فإذا حقق هذا الكتاب جذب الأنظار إلى أهمية أدب البحر فى التراث العربى وحبب إلى القراء والباحثين هذا الأدب العربى الجميل والممتع ، وحفز المؤسسات الثقافية العربية إلى جمع مخطوطات التراث العربى المغتربة فى أوروبا بعيدًا عن وطننا العربى وشعبنا العربى ، فإنه يكون قد حقق الكثير من أغراضه .

يجمع هذا الكتاب بين رؤيته للأدب كأداة تعبير جمالية ترمى إلى التأثير فى وجدان المتلقى ، وبين رؤيته للأدب كمصدر من مصادر المعرفة وكوثيقة علمية ، تاريخية وجغرافية واجتماعية . وقد حاولت أن تتمثل فى الكتاب النماذج والأجيال المعبرة عن نوعيات أدب البحر العربى ، قديمًا وحديثًا ، مع إطلالة على أدب البحر فى الغرب أيضاً . وأن يتضمن فنونا مختلفة من أدب البحر ، كالشعر والقصة والأدب الشعبى وأدب الرحلات البحرية والرواية . وأن يمثل مراحل زمنية مرتبة تاريخيًا ، وليس من أغراض الكتاب التأريخ لهذا الأدب ، ولكنه يستهدف تقديم لوحة تحليلية عامة تتمثل فيها أهم النماذج الأدبية فى أدب البحر مع التركيز على أدب البحر عند العرب ، كما حاولت فى هذا الكتاب أن أجمع بين أدب البحر وتقديم أكبر قدر من المعلومات المتصلة بمبدعيه وظروف إبداعه ، مع مراعاة الإيجاز والتبسيط حرصًا على عدم إرهاق القارئ ببحث جاف . لذا تجنبت ، قدر الإمكان ، جفاف النقد وعملت على التعريف والتوصيل والتبسيط غير المخل بالموضوع .

ونظراً لما يستهدفه الكتاب من التركيز على أدب البحر عند العرب ، فقد خصصنا سبعة فصول ، من فصول الكتاب الثمانية ، لهذه الغاية .

فتضمن الفصل الأول ، العرب والبحر ، عرضًا عاما لقصة العرب مع البحر ، ويشمل الإبداعات والاختراعات والاكتشافات والفتوحات العربية فى عالم البحار والمحيطات على مر التاريخ ، والدور الحضارى الذى أسهم به العرب ، تجاريًا ودينيًا وثقافيًا وعلميًا ، عبر البحار ، فى الحضارة الإنسانية .

ثم انتقلنا إلى دراسة وتحليل مصادر ونصوص أدب البحر العربى فى الفصول التالية من الكتاب .

فخصصنا الفصل الثانى ، لأدب البحر فى الشعر الجاهلى ، الذى شكل الملامح الأولى فى أدب البحر العربى ، وهو فصل ، برغم صعوبة البحث فى مصادره القديمة ، كان ضروريًا لاستكمال موضوع الكتاب أدبيًا وتاريخيًا وحضاريًا ، ولأنه أكد معرفة عرب الجاهلية بالبحر .

وتناولنا فى الفصل الثالث ، قصص التجار العرب ، أقدم القصص البحرية العربية ، التى مهدت لظهور قصص البحر فى ألف ليلة وليلة ، مع التعريف بدور التجار العرب الذين جمعوا بين التجارة والرحلة والأدب فى أعمالهم .

وفى الفصل الرابع ، درسنا أدب البحر فى حكايات ألف ليلة وليلة ، التى شغل البحر محورها الرئيسى المؤثر فى رؤيتها وأحداثها وشخصياتها ، مع التركيز على حكايات السندباد البحرى ورحلاته ، أكبر الأعمال الأدبية العربية تأثيرًا فى آداب العالم وفنونه .

وأفردنا الفصل الخامس لدراسة شخصية أديب وبحار عربى فذ أبدع فى أدب البحر وفى علم البحر ، وكان جماع المعارف البحرية العربية فى عصره ، هو أحمد بن ماجد الملاح الشاعر رائد أدب المرشدات البحرية ومرشد المكتشف البرتغالى فاسكودى جاما فى رحلته البحرية إلى الهند . وعرضنا لمؤلفات أحمد بن ماجد الأدبية والبحرية وزميله سليمان المهرى فى مدرسة المرشدات البحرية ، التى درست الطرق الملاحية وأثرت الملاحة العربية والعالمية بكثير من التجارب الواقعية والمؤلفات العلمية والأدبية فى أدب البحر وعلم البحر .

وتناولنا فى الفصل السادس ، أدب الرحلات البحرية عند العرب . وهو فن هام من فنون أدب البحر العربى ، وذلك نظرًا لما للرحلات من قيمة علمية وأدبية وفنية معروفة ، ولأن كثيرًا من أعمال أدب البحر العربى وفنونه نتجت من الرحلات وكتبها رحالة عرب قديمًا وحديثًا . فعرضنا لبعض النماذج فى أدب الرحلات البحرية العربية ، من رحلات المسعودى وابن بطوطة قديمًا ، إلى رحلات الدكتور حسين فوزى وفتحى غانم وصالح مرسى حديثًا .

وفى الفصل السابع ، الرواية العربية والبحر ، درسنا أحدث فنون أدب البحر العربى ، الرواية العربية ، عند ثلاثة من الروائيين العرب المحدثين ، بالمقارنة مع روايات البحر العالمية ؛ الروائى السورى حنا مينه وروایاته « المصابيح الزرق » ، « الشراع والعاصفة » ، « الياطر » .

والروائى الفلسطينى جبرا إبراهيم جبرا فى روايته « السفينة » ، والروائى الليبى صادق النيهوم وروايته من « مكة إلى هنا » .

أما الفصل الثامن والأخير ، أدب البحر عند الغرب ، فقد تناولنا فيه النماذج المعبرة عن مراحل وفنون أدب البحر الغربى ، من أدب الرحلات البحرية إلى الرواية والشعر ، كما عبرت عنها رحلات ماركو بولو ، وروايتى « موبى ديك » لهرمان ملفل ، و « العجوز والبحر » لارنست هيمنجواى ، وديوان « أوراق العشب » لوالت وايتمان .

ولا شك أن هناك الكثير من الأعمال الأدبية العربية والغربية الأخرى التى يظهر فيها البحر ، ولكنها استبعدت من مجال البحث فى الكتاب ، إما لأن البحر لا يشكل محورها الرئيسى ، أو لضآلة مساحة أدب البحر فيها ، أو لأنها تكرر النماذج التى تناولها الكتاب .

وبعد ، لقد حاولت بهذا الكتاب التجديد والتعريف والتركيز والتوضيح بغية الوصول إلى أكبر عدد من القراء ، واخترت موضوعًا ممتعًا مفيدًا هو أدب البحر ، وعالمًا جميلا هو عالم البحر الذى أحسب أننا نحبه جميعا ، ونلجأ إليه كى نتجدد . وآمل أن يحمل كتابى قدرًا من جدة البحر ، ومن فائدة أدب البحر ومتعته .

القاهرة فى أول ديسمبر ١٩٧٨ — **أحمد محمد عطية**